مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد السادس عشر، العدد الثاني، ص261- ص285 يونيه 2008
ISSN 1726-6807, http://www.iugaza.edu.ps/ara/research/

دور علماء الأندلس في الحياة السياسية خلال القرن الخامس الهجري

د. عمر راجح شلبي
كلية الآداب – قسم التاريخ
جامعة الخليل – الضفة الغربية - فلسطين

تاريخ استلام البحث:2007/8/26م ، **تاريخ قبول البحث**:2007/12/5م

ملخص: تناول هذا البحث الحالة السياسية التي شهدها القرن الخامس الهجري في الأندلس ، ومدى تأثيرالعلماء في الحياة السياسية ، والمواقف السياسية المختلفة التي وقفها أولئك العلماء والمتمثلة بتوجيه النقد اللاذع لملوك الطوائف وسياستهم ، ثم الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، والعمل على الاستنصار بالمرابطين من خلال الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله ، ثم العمل على تحريض المرابطين للقضاء على دويلات الطوائف الأندلسية.

Andalos scholars Role in the political life Durng the fifth century Higri

Abstract: This research is about the political situation of 5th century (AH) in Andalus. The extent to which scholars influenced the political life , and their various political positions manifested in severly criticizing kings and their policies . It also deals with their call for Islamic unity and seeking the support of the Murabits forJihad against the small state of Andalus.

المقدمة

أدى قيام دول الطوائف في الأندلس إلى تكريس الطائفية السياسية، حيث توزعت الأندلس لممالك عدة، عربية، وصقلية، وبربرية، وجنح الملوك إلى اتخاذ ألقاب لم يكن ليتخذها قبل ذلك غير الخلفاء، والمثال على ذلك قول ابن رشيد القيرواني(1) ت463هـ/1071م

ما يزهدنـــي في أرض أندلس ألقاب معتضـد فيهـا ومعتمـد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وفي عصر الطوائف انقسمت البلاد إلى وحدات سياسية، تقوم في كل منها دول ؛ مما أدى إلى تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية وتراجعت حدود الإسلام إلى الوراء ، وأشهر الدويلات التي قامت مقام الدولة الأموية كانت في اشبيلية ، وقرطبة ، وسرقسطة ، والمرية ، أما الإمارات البربرية ففي مالقة ، وغرناطة ، وبطليوس ، وطليطلة ، أما دانية والجزائر الشرقية فقد حكمها الصقالبة (2).

وأبلغ تعبير في وصف حال الأندلس عقب الفتنة وقيام دول الطوائف قول ابن الخطيب: " وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق ، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل

الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب ، والخطة المجاورة لعباد الصليب ، ليس لأحدهم في الخلافة إرث ، ولا في الإمارة سبب ، ولا في الفريسة نسب ، ولا في ثروة الإمامة مكتسب ، اقتطفوا الأقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العمالات والامصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الألقاب ، وكتب عنهم الكتاب الاعلام ، وأنشدهم الشعراء ... ووقفت بأبوابهم العلماء ... " (3) ، كما انتقد ابن حيان بشدة الدويلات الطائفية التي فرّقت الأندلس ؛ فأدت إلى انهياره وضياعه (4) ، ونستطيع القول : إن تمزق الأندلس إلى دويلات متنافرة كان ضربة ، لم تنهض الأندلس من أثارها قط ، وبالرغم من أن الأندلس قد التأم شملها بعد ذلك في ظل المرابطين ثم الموحدين، إلا أنها لم تستطع أن تسترد وحدتها الاقليمية القديمة ، ولا تماسكها القديم ، بل لبثت خلال صراعها الطويل مع اسبانيا النصرانية تفقد قواها ومواردها تباعاً ، وتتكمش رقعتها الاقليمية تدريجياً ، حتى إذا كان منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، رأينا رقعة الوطن الأندلسي ترتد إلى ما وراء نهر الوادي الكبير وتنحصر في مملكة غرناطة الصغيرة ، وأضحت قواعد الأندلس الكبرى مثل قرطبة واشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسيه وغيرها ، تغدو مدناً اسبانيةً نصرانيةً ،ويغدو ميزان القوى في شبه الجزيرة الاسبانية بيد مملكة قشتالة الكبرى ، وقد سعت كل دولة من دول الطوائف إلى الحفاظ على استقلالها ، ثم إلى توسيع حدود سلطانها على حساب غيرها ، وتَطَلَّب ذلك نفقات باهظة ، فسعى الملوك إلى إرهاق رعاياهم بالضرائب المختلفة (5) ، كما أن صراعهم مع بعضهم البعض أدى إلى طلبهم العون من ملوك النصارى ، فقد تحالف المأمون بن ذي النون (435هـ/1043م ـ467م/1075م) ملك طليطلة مع غرسية ملك نبرة 1035ـ1054م ، وضد المقتدر بن هود ملك سرقسطة ، وتحالف هذا الأخير مع فرناندو ملك قشتالة (1035ـ1065م) ضد خصيمه المسلم ، وهكذا نجد ملوك النصارى يعيثون في وقت واحد وبمساعدة مسلمين في آراضي المسلمين (6) ، كما تحالف المعتمد بن عباد ملك اشبيلية مع الفونسو (1065ـ1109) ملك قشتالة ، وأدى له خمسين ألف دينار مقابل أن يعينه على فتح غرناطة ، على أن تكون المدينة للمعتمد ، وذخائر القلعة الحمراء للفونسو ، وفي الوقت نفسه سعى ملك غرناطة عبد الله بن بلقين (465هـ /1073م ـ 483هـ/1090م) إلى التحالف مع الفونسو نفسه ، دفعاً لأذاه ونكاية في المعتمد (7).

ولا بد ـ بطبيعة الحال ـ من مقابل ، وكان المقابل في البداية مالاً يُؤدي إلى الملك النصراني، لم يلبث أن تحول إلى جزية ، يقع عبؤها على الرعايا الأندلسية ، ثم تحول إلى تنازل عن أراضٍ إلى جانب الجزية.

دور علماء الأندلس في الحياة السياسية

لذلك كله اجمع نهض العلماء لأخذ دورهم في الحياة السياسية في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ، وتجلى ذلك الدور في تأثيرهم على سياسة الحكم، ويُعزى نجاحهم ذلك إلى التأييد الذي حصلوا عليه من أفراد المجتمع الأندلسي ، لأنهم نظروا إليهم كحماة للدين والحريصين على وحدة ومصالح المسلمين ، إلا أن أولئك العلماء انقسموا إلى قسمين : الأول وقف إلى جانب الحق والعدل ، والعمل على الوحدة والمصلحة الإسلامية ، والثاني وقف إلى جانب من يستأثر بالحكم لتحقيق بعض المنافع الذاتية، وبقي هناك فئة لا مع هؤلاء ولا مع أولئك.

أما الحكام فكانوا على وعي تام لأهمية هؤلاء العلماء ، فقرّبوا إليهم البعض لإسباغ الشرعية على حكمهم ، ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث لتسليط الضوء على الأدوار التي لعبها العلماء وكثرة الخلافات والأطماع لملوك الطوائف ، مع اشتداد الأزمات الداخلية والتهديدات الخارجية المتمثلة في ممالك الشمال النصراني ، التي بدأت تُعِدُّ العدة لاحتلال الأندلس ، والقضاء على الوجود الإسلامي فيه.

وقد تناول هذا البحث الوضع السياسي الذي شهده القرن الخامس الهجري ، والذي من خلاله برزت أهمية العلماء بتقريب الملوك لهم لتدعيم نفوذهم وسلطانهم ، كما تناول البحث مواقف العلماء الرافضة لسياسة ملوك الطوائف على نحو ما كانت عليه من ظلم وفرقة ، وللخروج من هذا الوضع قام بعض العلماء بالسعي للوحدة بين المسلمين والدعوة لها لمواجهة الخطر النصراني ، ثم تطور هذا الموقف إلى الدعوة للجهاد في سبيل الله ، وطلب العون من دولة المرابطين الفتية في المغرب ، وإقناع ملوك الطوائف بالقبول بهذا الخيار ، وبعد نجاحهم في إبعاد الخطر النصراني انقلب العلماء على ملوك الطوائف ؛ فحرّضوا المرابطين على خلعهم ، حتى آلت الأندلس إلى الحكم المرابطي بمساعدة هؤلاء العلماء.

الأحوال السياسية في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري

تستلزم القاعدة المنهجية أن نعرض في البداية أوضاع الأندلس في القرن الخامس الهجري لتتجلى لنا صورة التمزق السائدة آنذاك ، فقد تقاسم الأندلس مجموعة من المتربصين بالسلطان ، ممن استبدوا بنواحيهم ، فأسسوا كيانات ضعيفة وصل عددها إلى ثلاث وعشرين دويلة ، ولدينا نص يبين حالة التمزق في تلك المرحلة على لسان الفقيه ابن عبد البر ، الذي عايش أحداث تلك الحقبة حيث قال : " وانقطع ملك بني أمية بعد الأربعمائة بأعوام يسيرة ، فصار كل من غلب على موضع ملكه واستعبد أهله ، وكثر فيها الأمراء ، فضعفوا وصاروا خولاً للنصارى يؤدون إليهم أضعاف ما كان المسلمون يأخذون منهم اليوم "(8).

كما أورد الأمير عبد الله بن بلقين آخر أمراء غرناطة نصاً أشار إلى هذا المعنى " وبقي الناس لا إمـــام لهم ، فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الآخر ، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة " (9) ، إضافة إلى ذلك لم تقم دويلات الطوائف على أســس ثابتة قوية بل افتقرت إلى القاعدة التي تضمن لها الكيان السياسي القوي ، كما أن صغر مــساحة الدويلات وقلة عدد سكانها ، وعدم امتلاكها لقوة عسكرية تمكنها من الدفاع عن حدودها ، جعــل منها دويلات ضعيفة شبيهة بالدولة الإقطاعية حتى" ذلّ الرئيس والمرءوس ، وافتقرت الرعيــة ، وفسدت أحوال الجميع بالكلية ؛ فزالت من النفوس الأنفة الإسلامية " (10) .

واتسمت العلاقة بين تلك التيارات الطائفية السياسية بالعداء والصراعات الدموية التــي أدت إلى ضعفها ، وقد وصف أحد المؤرخين هذه الحالة بقوله " وجعل الله بين أولئــك الأمــراء ملوك الطوائف من التحاسد ، والتنافس ، والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفــات والعــشائر المتغايرات "(11) ، وقال الفقيه ابن عبد البر الذي عاش تلك المرحلة " وانقطع ملك بني أمية بعد الأربعمائة بأعوام يسيرة ، فصار كل من غلب على موضع ملكه واســتعبد أهلــه ،وكثــر فيهــا الأمراء، فضعفوا وصاروا خولاً للنصارى يؤدون إليهم أضعاف ما كان المسلمون يأخذون مــنهم اليوم " (12) ، كما أن الأمير عبد الله بن بلقين صوّر الحالة السياسية السائدة آنذاك بقوله " وبقــي الناس لا إمام لهم ، فتنافسوا على الدنيا وطمع كل واحد في الآخر، وكذلك لا يــصح أمــر بــين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة ؟ ! وأهواء مختلفة " (13).

هذه الحالة أدت إلى طمع القوي بالضعيف ، والتفّ كل عنصر حول حزبه ، متناسين مسؤولياتهم الوطنية ، وتجسدت العنصرية ، والطائفية ، والقبلية في الأندلس ، فحرص كل منهم على السيطرة على جزء من الأندلس ، وتقاسموا ألقاب الخــلافة ، فمنهم من تسمى (المعتضد) ، ومــنهم مــن تسمى (المأمون) ، وآخر(المستعين) و(المعتمد) و(الموفق) إلى غير ذلك من الألقاب الخلافيــة ، التي تعكس حالة التفكك والضعف والانقسام (14) ، لذلك لم يصمد ملوك الطوائف أمام هجمــات النصارى الذين وحدوا قواهم ليحققوا حُلمهم في استرجاع بلادهم من المسلمين .

واستغلت ممالك إسبانيا النصرانية هذه الفرقة بين ملوك المسلمين ، فأعانوهم على بعضهم البعض لإضعافهم ، وابتزاز الأموال منهم ، قال ابن الكردبوس : " وكان أسرّ شيء على الفنش فتنة تقع بين الولاة ــ إشارة إلى ملوك الطوائف ــ من المسلمين ، فيعين هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيستجلب بذلك أموالهم طمعاً من أن يعجزوا فيظفر بملك الجزيرة كلها " (15) ، وذكر دوزي أن الفونسو السادس كان من القوة التي تمكنه من السيطرة على شبه الجزيرة ، إلا أنه رأى ألّا يتعجل

ذلك،حتى يستنزف أموال المسلمين (16) ، ثم السيطرة على الأرض (17) ، لأجل تحقيق ذلك جنحت الممالك النصرانية إلى الوحدة لتحقيق أهدافها القومية .

ولم يكن هذا الواقع السياسي المهترئ سوى انعكاس للوضع الاقتصادي السيء الذي أفرزته اعتداءات الفونسو ، الذي شكل قوة ضغط على ملوك الطوائف ، حتى جعلهم حسب تعبير دوزي " (18)" في المعصرة " ، وذلك باستنزاف مواردهم المالية عن طريق سنّ ضرائب سنوية (19) ازدادت مقاديرها بشكل كبير إلى درجة أن بعضهم عجز عن أدائها (20) ، فكانت جولاته العسكرية تعود كل مرة محملة بالضرائب ، كما أصبح الفونسو حسب تعبير أحد الباحثين (21) " من أكبر الوجوه " التي ستضاعف الزحف المسيحي ، ولعل تلقيب نفسه بذي الملّتين (22) يؤيد هذا المعنى ، ويدلل أيضاً على عزمه استرجاع الأندلس برمتها ، وقد ظل الأمر على هذا النحو حتى قدوم المرابطين.

ازدادت مكانة العلماء في القرن الخامس الهجري نتيجة حاجة ملوك الطوائف لتدعيم نفوذهم وسلطانهم، فكانوا بحاجة إلى القوة الروحية التي تتمثل في رجال الدين من الفقهاء والعلماء ، وكان العلماء في هذا العصر أكبر مساند لأمراء الطوائف في تبرير سياساتهم وظلمهم للرعية ، فيخدمون هذا الأمير أو ذاك من أجل الحصول على النفوذ والمال ، ويضعون فتاويهم الفقهية في خدمة أمراء الطوائف تأييداً لظلمهم ، حتى استفزت أعمالهم بعض كتاب في ذلك العصر ، فإبن حزم صور ذلك الواقع بقوله : " لا يغرنكم الفساق المنتسبون إلى الفقه ، واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم " (23) ، وفي عهد المستكفي بالله (24) تولى كثيرٌ من أصاغر الفقهاء الخطط المختلفة ، وشغل بعضهم خطة الوزارة إلى جانب أراذل الناس ، وكذلك بالغ في ترقية أصاغر الطبقة الفقهية لمنزلة الشورى فوسم كافتهم بوسم الفتوى ، فأسرف في ذلك حتى بلغ عدد أهل الفتيا يومئذ الأربعين (25).

إلا أن بعض العلماء والفقهاء رفضوا إعانة ملوك الطوائف على ظلمهم للناس ، فرفضوا تولي المناصب احتجاجاً على الفوضى السياسية والأخلاقية التي كان يعيشها الحكام ، وقد عرّض قسم من أولئك العلماء أنفسهم لغضب الحكام وانتقامهم ، كما حدث للفقيه "أبو حفص عمر بن الحسن الهوزي" ، الذي قتله المعتضد بيديه ، عندما نبهه إلى الخطر الذي يتهدد البلاد نتيجة خطأ سياسة ملوك الطوائف(26) ، كما قام حفيد المعتضد المأمون الفتح بن محمد بن عباد بقتل الفقيه عمر بن حيان بن خلف بن حيان ، ومثّل بجثته عام 474هـ/1081م (27) ، وكان لتلك

الممارسات من بعض ملوك الطوائف تجاه الفقهاء والعلماء أن ساعد في انهيار نظام الطوائف ، وانهيار الدعامة الدينية التي أوجدها أولئك الفقهاء .

وقد شارك العلماء ، والفقهاء بالحياة السياسية ، فكانوا عنصراً فاعلاً في الصراع الدائر بين المتنافسين على السلطة السياسية أثناء ما يُسمى (الفتنة البربرية) (28) ، حيث قُتل من الفقهاء أعدادٌ كثيرةً عندما دخل البربر قرطبة سنة 403هـ/1012م ،منهم الفقيه سعيد بن منذر بن سعيد البلوطي(29)، والفقيه عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصير الأزدي (30) ، والفقيه محمد بن سعيد السرى الأموي الحرار (31) ، والفقيه أبو سلمة الزاهدي (32) ، ومنهم من توفي في السجن مثل الفقيه عبد الله بن سعيد بن خيرون بن محارب (33) ويُعرف بابن المحتشم ، ومنهم من خرج فاراً من قرطبة بعد غلبة البربر عليها (34) ، وقد دل قتل الفقهاء وسجنهم وفرارهم على مشاركتهم الفعّالة في الأحداث الدائرة في قرطبة قبل فتنة البربر ، مما أدى إلى ملاحقتهم.

وقد ساعد انتشار الفقهاء في الكور الأندلسية على إحداث نهضة ثقافية ، وعلمية في المناطق التي استقلت، وذلك لتنافس أولئك الملوك على جذب الفقهاء إليهم لتأكيد شرعيتهم، فشغلوا مناصب عدة لديهم (35).

ومن هنا ، فقد مارس العلماء خلال القرن الخامس الهجري دورين : دوراً يمكن أن نطلق عليه انتهازي نفعي غايته الكسب والثراء على حساب قضايا الأمة ، ولحساب المتنفذين في السلطة ممثلين بملوك الطوائف ، ودوراً آخر ديني ووطني قام به العلماء الحقيقيون بوسائل عدة من خلال رسالة موجهة أو وصف للحال الذي تمر به الأندلس ، أو الحزن والشكوى من المتنفذين ، أوالدعوة إلى التوحد ونبذ الفرقة ، أو بذل الجهود للمصالحة ، أو المشاركة في الجهاد .

1- دعوة العلماء إلى الوحدة

بدأت دعوة العلماء إلى التوحد بعد أن تبين عجز ملوك الطوائف عن حماية المسلمين والتصدي للنصارى وهجماتهم ، فذلك أبو محمد بن عبد البر النمري (36)كان يحض على الجهاد ويدعو إلى جمع شمل الأمة ، قائلاً " ولو كان شملنا منتظماً وشعبنا ملتئماً ، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً ، والأنامل في اليد اشتراكاً ، ما طاش لنا سهم ، ولا سقط لنا نجم ، ولا ذل لنا حزب ، وفُلَّ لنا غَرْب ، ولا رُوّعَ لنا سِرْب ، ولا كُدّ لنا شِرْب ولكنا عليهم ظاهرين ، إلى يوم الدين ..."(37).

كما إن أبا بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن اسحق بن مهلب بن جعفر (38) تطوع في إزالة الخلافات بين ملوك الطوائف وجمع كلمتهم ، فحظي بمكانة لدى ملوك

الطوائف ، " وكانت له عند ملوك الأندلس في عصره حظوة ومكانة يسفر لأجلها بينهم في تسكين ما ينبعث لبعضهم مع بعض أيام الفتنة " (39).

ورغم دعوات هذه الوحدة فإن أغلب الملوك صمّوا آذانهم ؛ ففوّتوا فرصة الاتحاد والتضامن ، حتى وقعت كارثة سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م ، فنشط العامة والعلماء في المطالبة بالوحدة والجهاد في سبيل الله ، وكان من أشهر الدعاة إلى الوحدة أبو الوليد الباجي (40) ، الذي جال بلاد الأندلس طولاً وعرضاً ، داعياً إلى وحدة الصفوف ، ومحذراً من عواقب الفرقة والنزاع، وذلك بعد عودته من الشرق ، حيث وجد الأندلس بعد غيابه عنها " ... ملوكها أضداد ، وأهواء أهلها ضغائن وأحقاد ، وعزائمهم في الأرض فساد وإفساد ... " (41) ، لذلك " رفع صوته بالاحتساب ، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلةِ ما أُنبتَّ من تلك الأسباب ، فقام مقام آل فرعون ...بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب ، وأجزل حظه بالتأنس والتقريب ، وهو في الباطن يستجهل نزعته ، ويستثقل طلعته ... " (42) ، ووأشار المقري إلى ذلك بقوله " ولما قدم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً ، وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة ، فمشى بينهم في الصلح ، وهم يُجلّونه في الظاهر ، ويستثقلونه في الباطن ... " (43) .

ومن هذه النصوص يظهر أن الباجي هو الذي انتدب نفسه للطواف على ملوك الطوائف ؛ لأجل دعوتهم إلى الوحدة ، إلى أن جولاته لم تحقق الهدف ، ولكنه استطاع أن يشعرهم بالمسئوليات الدينية والوطنية الملقاة على عاتقهم ، وضرورة نبذ خلافاتهم لمجابهة الخطر النصراني ، وبعد أن تفاقم الخطر على الأندلس، التفت إليه بعض ملوك الطوائف فانتدبوه فيما بينهم " ... وترسل للملوك ، وولى القضاء بعدة مواضع ... " (44) ، وذكر القاضي عياض أنه " كان يصحب الرؤساء ويُرسلُ بينهم ..." (45) .

ومن النصين السابقين ، يتبين أنه تم تكليف الباجي بمهمة دعوة الملوك إلى الوحدة وضد التمزق والتشرذم والاختلافات المميتة والتناحرات ، لأن هدف الجميع في تلك المرحلة واحد وهو مجاهدة العدو المشترك ،فقد ذكر ابن الأبار أن المتوكل بن المظفر بن الأفطس460ـ487هـ/1067ـ1094م انتدب أبا الوليد الباجي للطواف على ملوك الطوائف " ولما عظم عبث الطاغية أذفونش بن فرذلند وتطاول إلى الثغور ، ولم يقنع بضرائب المال، انتدب للتطواف على أولئك الرؤساء القاضي أبا الوليد الباجي ، يندبهم إلى لمّ الشعث ، ومدافعة العدو ، ويطوف عليهم واحداً واحداً ، وكلهم يصغي إلى وعظه " (46) ، كما ذكر القاضي عياض في ترجمته للباجي أنه " توفي بالمرية سنة أربع وسبعين لسبع عشرة خلت من رجب، وكان جاء إلى

المرية سفيراً بين رؤساء الأندلس ، يؤلفهم على نصرة الإسلام ، ويروم جمع كلمتهم مع جنود المغرب المرابطين على ذلك إلاّ أنه توفى قبل تمام غرضه" (47).

من هنا يظهر أن ابا الوليد الباجي اندفع في الدعوة إلى وحدة أمراء الطوائف وتقريب وجهات النظر بينهم ، وبمبادرة ذاتية من منطلق الدافع الديني والوطني ، حيث وجد أمراء لا يهمهم سوى مصالحهم الذاتية التي كانت فوق مصلحة الوطن والدين ، لذلك أجلّوه في الظاهر واستثقلوا دعوته في الباطن ، مما ينم عن النفاق الناتج عن العجز لدى الأمراء ، أو ارتباط بعض أولئك باتفاقات وعود وهمية مع بعض الممالك النصرانية بعدم التعرض لهم ، لذلك لم يستشعروا الخطر المحدق بهم وبالمسلمين فاستثقلوه ودعوته رغم معرفتهم المكانة التي يتمتع بها الباجي من ناحية علمه ووطنيته.

إلا أن بعض الأمراء استشعر حقيقة الخطر المحدق بهم وبالأندلس عموماً ، عندما عظم خطر اذفونش بن فرذلند وتطاوله على الثغور، أي بعد أن أحدق الخطر بهم ، وهنا تحول الباجي في دعوته إلى الشكل الرسمي ، حيث أُرسل من بعض الأمراء سفيراً ليدعوا إلى وحدة الدويلات الطائفية لصد العدوان النصراني عن ولاياتهم وممالكهم ، لكنه توفي قبل تمام أهدافه ، إلا أن أمثاله من العلماء واصلوا طريقه حتى تحققت الوحدة .

وقد كانت الدعوة إلى الوحدة تهدف إلى إيجاد قواسم مشتركة بين أمراء الطوائف لتنظيم العلاقة بينهم على أرضية مناسبة ، ومناخ ملائم لتوفير علاقات إيجابية تسير بهم نحو التعاون في مواجهة الأخطار المشتركة ، ولم تعنِ الوحدة بأي شكل من الأشكال الاندماج بينهم لتكوين دولة واحدة .

وقد أسفرت جهود العلماء عن تكوين رأي عام لدى المسلمين في الأندلس في طلب الوحدة والإلحاح عليها ، وبذلك كانت استجابة ملوك وأمراء الطوائف نتيجة لهذ الإلحاح .

2- معارضة ملوك الطوائف وتوجيه النقد اللاذع لهم

وجه ابن حزم الأندلسي النقد اللاذع لملوك الطوائف على فسادهم وخنوعهم للنصارى واضطهادهم لرعيتهم ، ووصفهم بأنهم محاربون لله تعالى وفاسدون لأخذهم أموال رعيتهم عن طريق الضرائب الجائرة التي يفرضونها عليهم (48) .

كما ذكر أن الغاية القصوى لملوك الطوائف هي رعاية مصالحهم الخاصة ، وتفضيلها على مصالح رعيتهم من المسلمين حيث قال "... والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم

ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم ... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه "(49).

كما أن ابن حزم طالب الناس بالثورة على ملوك الطوائف ، مذكراً إياهم بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(50) ، وهذا يدل على أن المنكر قد تفشى بين الناس ، فأدرك ابن حزم خطورته في هدم النسيج الاجتماعي للأمة ، فطالب عامة الشعب ومثقفيه برفض مواقف الملوك وأعمالهم و انتقادهم ، والتعبير عن عدم الرضا عن سياستهم ولو في القلوب ، إلا أن ابن حزم كما سبق وصف ملوك الطوائف جميعهم بأنهم محاربون لله تعالى ؛ لعدم قيامهم بدورهم الوطني والديني في حماية رعاياهم ومجاهدة الأعداء ، بل قاموا بتقديم الولاء والطاعة لملوك النصارى ، ومكّنوهم من رقاب المسلمين وأموالهم .

أما ابن حيان فقد وجه نقده إلى الأمراء والفقهاء الذين ضلوا عن الطريق الصحيح ، ومالوا إلى النزاع والفرقة ، أما الفقهاء فمنهم من استساغ الجلوس على موائد الأمراء ، ومنهم من ربط لسانه خوفاً من بطشهم ، فيقول: " ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم ، هم كالملح فيهم : الأمراء والفقهاء ... فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا هذين ... فالأمراء القاسطون قد نكّبوا بهم عن نهج الطريق ، ذياداً ... عن الجماعة ، وحَوْشاً إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ... "(51) ، كما أنه علّق على أحداث نكبة بربشتر عام 456هـ/1064م ، وعلل أسبابها وأنحى باللائمة على الناس والحكام بما ارتكبوا في جنب الله من ذنوب إهمالهم ، وتقصيرهم في الأخذ بالشريعة ، وتهاونهم في تنفيذ أوامرها ، مما جرهم إلى حالة الفرقة وأذهب قوتهم (52) .

وقدأنحى باللائمة أيضاً على أمراء السوء في دول الطوائف ، الذين انحرفوا عن نهج الإسلام ، ملوّماً الناس لركونهم إلى أمثال هؤلاء الأمراء .

كما أن أبا اسحق الألبيري في قصيدته التي حرض فيها على اليهود ، انتقد باديس بن حبوس أمير غرناطة ، لتقريبه اليهود واستوزارهم في مملكته بقوله :(53)

لقد زل سيدكم زلةً	**تقرّ بها أعين الشامتين**
تخير كاتبه كافراً	**ولو شاء كان من المؤمنين**
فعزَّ اليهود به وانتخوا	**وتاهوا وكانوا من الأرذلين**

من خلال ما سبق يمكن القول إن العلماء الذي اتسموا بالتدين والوطنية جسدوا أسباب فساد الوضع في الأندلس الأول يتمثل بفساد الأمراء الساعين وراء مصالحهم على حساب مصالح الأمة والوطن ، والثاني علماء السلاطين الداعمين لهم ، أي أن الفئتين كانت تعمل كل منهما

لمصلحتها الذاتية ، وذلك كله أجمع إلى ازدياد الحالة سوءاً على الناس بتساقط مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى بيد النصارى ، كما أظهر العلماء بمواقفهم السابقة أهمية دورهم السياسي وتأثيرهم على المجتمع ، فكانوا الحارس الأمين على قضايا الأمة والصوت الذي يُعبر أفراد المجتمع من خلاله عن آمالهم وآلامهم .

3- الدعوة إلى الجهاد

لا شك أن ما قام به الفقهاء من جهد للحث على الوحدة ولمّ الشمل ، كان له أثره في استجابة بعض ملوك الطوائف لدفع الخطر المحدق بهم ، وبالأندلس عموماً ، فلم يستطع ملوك الطوائف الاستمرار بصم الآذان عن النداءات المتكررة من الفقهاء والعامة ، التي طالبتهم برصّ الصفوف والاستنجاد بالمرابطين ، بمعنى توحيد كلمة المسلمين ليس في الأندلس فحسب ، وإنما في المغرب أيضاً لمواجهة وحدة الأمم النصرانية ، فاتجه لهذه الغاية وفد أندلسي شعبي سنة 474هـ/1081م إلى المغرب لاستصراخ ابن تاشفين لإنقاذ الأمة الإسلامية مما هي فيه من تكالب النصارى عليهم ، وعرضوا على يوسف بن تاشفين المخاطر التي تهدد الأندلس من قبل النصارى ، وما عانوه من أعدائهم ، فوعدهم بالمساعدة ، " وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة وفد عليه جماعة من أهل الأندلس ، وشكوا إليه ما حلّ بهم من أعدائهم ، فوعدهم بإمدادهم، وإعانتهم، وصرفهم إلى أوطانهم " (54) .

ومن تلك الجهود ما أورده صاحب التكملة في ترجمة أبي عبد الله محمد بن حسين بن محمد بن عريب الأنصاري (ت. بعد عام 508هـ) أنه " سكن سرقسطة ، وتجول كثيراً في بلاد الأندلس والعدوة ... وكان وجيهاً عند الملوك متردداً عليهم " (55) ، وهذا النص يكشف محاولات ابن عريب الأنصاري المتكررة في إقناع ملوك الطوائف بالدخول تحت طاعة ابن تاشفين ، لمواجهة الأخطار النصرانية التي اتخذت الطابع الصليبي في وحدة النصارى للاستيلاء على الأندلس ، وطرد المسلمين منها .

وكان لعدم امتلاك ملوك الطوائف قوةً عسكريةً تصد الخطر النصراني ، وتزايد أطماع الفونسو السادس بضم الجزيرة كلها إليه ؛ ازداد استصراخ الأمة بيوسف بن تاشفين لإنقاذها مما هي فيه ، أن قام بعض ملوك الطوائف بالمبادرة إلى إرسال سفارات رسمية إلى المغرب طلباً للعون العسكري ، وجهاداً ضد النصارى في الأندلس ، وبذلك اتفقت الأندلس كلها على طلب النصرة من المرابطين سواء أكان أمراؤها أم علماؤها، أم عامتها ، خاصة بعد اشتداد حملات النصارى عليهم وسقوط طليطلة.

وكان المتوكل على الله بن الأفطس صاحب بطليوس أول من كتب إلى يوسف بن تاشفين يطلب عونه ، مبيناً له الحالة العامة السائدة في الأندلس ، التي تُظهر ضعف الطوائف وتكالب النصارى عليهم ، ويستعطف أيضاً ابن تاشفين لنصرة الإسلام والمسلمين ، لا لنصرة الملوك ويبدو أن هذه الرسالة لم تكن الأولى إلى يوسف بن تاشفين ، فقد سبق وأرسل إليه ابن الأفطس يطلب معونته خيث قال:" ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك، أعزك الله بالنازلة في مدينة قرمونة ... " (56) .

إلا أن ابن أبي زرع يذكر في أحداث سنة 467هـ/1074م أن المعتمد بن عباد طلب من يوسف بن تاشفين الجواز إلى الأندلس لجهاد النصارى (57) ، ومن المستبعد أن يقوم المعتمد في تلك الفترة المبكرة بالطلب من ابن تاشفين الجواز إلى الأندلس ، لأن ذلك لم يحدث إلا بعد اشتداد هجمات الفونسو السادس على أراضي الأندلس سنة 475هـ/1082م (58) ، ويبدو أن تلك السفارات الأندلسية المبكرة إلى ابن تاشفين كانت من وجهاء مختلف مدن الأندلس ، فبعد سقوط طليطلة وفد على ابن تاشفين العديد من السفارات طلباً للنجدة " وكان يوسف بن تاشفين لا يتزل تفد عليه وفود الأندلس ، مستعطفين مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والإسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته ، فيستمع إليهم ، ويصغي إلى أقوالهم ... " (59) ، وأما السفارات الرسمية التي تمثل ملوك الطوائف ، فقد بدأت رحلتها إلى المغرب بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م لطلب العون من ابن تاشفين (60) .

وكان المعتمد بن عباد أول من سعى من ملوك الطوائف لتوحيد الكلمة لمواجهة الفونسو السادس " فخاطب جارية : صاحب بطليوس وصاحب غرناطة ، في تحريك قاضييهما إلى حضرته للاجتماع بقاضي الجماعة بقرطبة ، فوصل من بطليوس قاضيها أبو اسحق بن مُقَانا ، ومن غرناطة قاضيها القليعي ، واجتمعا في إشبيلية بالقاضي أبي بكر بن أدهم ، وانضاف إليهم الوزير أبو بكر محمد بن أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون ثم توجهوا جميعاً إلى ابن تاشفين ... " (61)، ويذكر ذلك أيضاً الأمير ابن بلقين بقوله " وقد كان رسلنا قد مضوا مع رسل المعتمد إلى أمير المسلمين ، على اتفاق ضمّ بَعْضُنا فيه بعضاً إلى حقيقة ، وعاقدنا أمير المسلمين على أن تتصل الأيدي على غزو الروم بمعونته ... " (62)

وقد أرسل المعتمد بن عباد كتاباً إلى يوسف بن تاشفين سنة 479هـ/1086م بيّن له فيه الحالة التي وصل إليها ملوك الطوائف في الأندلس من الفُرقة والتخاصم ، وعدم نصرة بعضهم بعضاً وطلب منه النجدة (63) ، وقد ذكر ابن أبي زرع أن المعتمد بن عباد نهض إلى يوسف بن تاشفين في دار إقامته بالمغرب بنفسه لطلب العون ، ونجدة المسلمين ثم قدّم له شرحاً وافياً عن الوضع السياسي والعسكري لأمراء الطوائف ، واشتداد وطأة ألفونسو على المسلمين وما

يمارسه بحقهم من القتل والأسر والحصار، وقد أثار ذلك الحمية الإسلامية في يوسف بن تاشفين فقال للمعتمد: " ارجع إلى بلدك وخذ في أمرك ، فإني قادم عليك في إثرك إن شاء الله ... "(64).

مما سبق ، يظهر أن العلماء والفقهاء قاموا بدورهم الديني والوطني على أكمل وجه ، فقد أبدوا معارضتهم لملوك الطوائف لتقاعسهم عن ردّ عادية النصارى ، وفي الوقت نفسه بذلوا جهدهم لإقناع أولئك الملوك بضرورة الاستنجاد بالمرابطين ، فضلاً عن مشاركتهم الفعلية في المعارك المختلفة بين المسلمين والنصارى ،فذلك الفقيه يعلى المصمودي الذي شارك في موقعة الزلاقة سنة 479هـ/1086م واستشهد فيها (65) ، كما استشهد فيها الفقيه فضل بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ولد الحافظ أبي محمد بن حزم (66) ، ومنهم من شارك في المعركة ولم يُرزق الشهادة مثل الفقيه الكاتب أبي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة ، وقد انفرد بذكر روايته حول معركة الزلاقة ، والتي تُعدّ من الروايات النادرة التي وصلت على لسان شاهد عيان (67).

ومما لا شك فيه أن ذلك الدور الذي قام به علماء الأندلس كان نتيجة اتحاد النصارى في حربهم ضد المسلمين ، ودعم البابوية لهم ، مما صبغ تلك الحروب بالصبغة الدينية ، لذلك نهض الآخرون بدورهم الديني بالحض على الجهاد وحماية المسلمين ، وكانت حملة العلماء تلك من الوسائل المهمة التي أدت إلى وقف التوسع النصراني في الأندلس ، وإلى بعث المصلحة الإسلامية العليا في نفوس ملوك الطوائف ، فالمعتمد بن عباد عندما قرر طلب العون من ابن تاشفين نصحه بعض الملوك أن يتريث في ذلك ، وحذرته حاشيته من عاقبة الأمر (68) ، إلا أنه لم يلتفت إلى تحذيراتهم ، وأجابهم بقوله المشهور: " رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير " (69) ، يريد بذلك أن يكون أسيراً لدى ابن تاشفين يرعى جماله ، خير له من أن يكون أسيراً لدى الفونسو يرعى خنازيره .

وهذا القول يدل على وعي ابن عباد لدوره الديني والوطني في الحفاظ على استمرارية الوجود الإسلامي في الأندلس ،حتى لو كان ذلك على حساب مصلحته الشخصية ، إلا أن تلك النظرة وذاك الوعي لم يستمر إلى ما لا نهاية ، فقد عاد هو وغيره لتجديد الولاء لملوك النصارى على حساب المصلحة الوطنية والدينية .

4- تخليص الأندلس من حكم ملوك الطوائف

لم يتوقف دور العلماء في تخليص الأندلس من الخطر النصراني بالدعوة إلى الوحدة والجهاد والاستنصار بالمرابطين ، بل تجاوز ذلك إلى تخليص الأندلس من حكم ملوك الطوائف

الذين عادوا إلى سيرتهم الأولى من التفكك والتودد إلى ملوك النصارى ، وكان سبيلهم لتحقيق ذلك السعي لدى ابن تاشفين للإطاحة بهم ، وإصدار الفتاوي التي تجيز إسقاطهم .

فقد قام القاضي ابن سهل بإخبار ابن تاشفين بانقسام جيش إمارة غرناطة وانهيار معنوياته ، وترحيب سكان الإمارة بابن تاشفين لتخليصهم من حاكمها (70) ، كما أن الفقيه أبا جعفر بن القليعي قام بتحريض ابن تاشفين للقضاء على ملوك الطوائف (71) ، إلى أن أبا بكر بن مُسَكَّن كان أكثر العلماء تحريضاً لابن تاشفين للقضاء على ملوك الطوائف عامة (72) ، وقد ذكر ابن الخطيب هذا التحريض على ملوك الطوائف عموماً بقوله " ... وداخله الناس في شأنهم ، ودست إليه السعايات بهم ، فأعاد الجواز ثالثةً سنة 483هـ/1090م ، وشرع في خلعهم ، فتم له ذلك..." (73).

ويذكر أن ابن تاشفين قد أقسم على عدم الغدر بالمعتمد بن عباد وعدم خلعه ، إلى أن فقهاء إشبيلية وقضاتها وأعيانها قالوا له :"... هؤلاء الرؤساء لا تحل طاعتهم ، ولا تجوز إمارتهم ، أنهم فسّاق فجرة ، فاخلعهم عنا ، فقال لهم : وكيف يجوز لي ذلك وقد عاهدتهم وارتبطت معهم على إبقائهم ؟ ، فقالوا له : إن كانوا عاهدوك فها هم قد ناقضوك ، وأرسلوا إلى الفنش أن يكونوا معه عليك ، حتى يوقعوك بين يديه ، ويعود أمرهم إليه ، فبادرهم بخلعهم بجمعهم ، ونحن بين يدي الله المحاسبون ، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون ، فإنك أن تركتهم وأنت قادر عليهم ، أعادوا بقية بلاد المسلمين إلى الروم ، وكنت أنت المحاسب بين يدي الله تعالى " (74).

لا شك أن العلماء بهذا الموقف ــ أو الفتوى ــ يبينوا استغلالهم لمكانتهم الدينية والعلمية في تغيير الواقع السياسي الذي تعيشه الأندلس ، وقد أفتى أبو بكر الطرطوشي بجواز تنحية ملوك الطوائف عن حكمهم (75) وسانده في ذلك علماء المشرق وعلى رأسهم الإمام الغزالي ، الذي أفتى بضرورة تنحية ملوك الطوائف ، ورأى " أن الإبقاء عليهم لا يتوصل معه إلى واجب الجهاد" (76). وفتوى الإمام الغزالي تدل على أن أمر الأندلس ليس مقتصراً على مسلمي الأندلس وحدهم، وإنما هي قضية جميع المسلمين ، الحريصين على بقاء دولة الإسلام في تلك البقعة من العالم ، وعدم جواز التفريط بالأرض للنصارى المتربصين لكل فرصة للاستيلاء على الأندلس .

مما سبق ، يظهر مدى مساهمة العلماء في الحياة السياسية ، إذ ذللوا الصعاب أمام يوسف بن تاشفين بفتاويهم لإسقاط ملوك الطوائف ، وتقديم الأندلس على طبق من ذهب إليه بعد إسقاط الطوائف ، وموقف العلماء هذا كان له غايات عدة منها :حرص البعض على الأرض الإسلامية والمسلمين من خطر النصارى ، وتوحيد المغرب والأندلس ؛ ليكونا قادرين على الوقوف أمام الأطماع التوسعية النصرانية ، أما الغاية الأخرى فقد ترجع إلى المصلحة الشخصية

لبعض العلماء للحصول على المكانة العالية في بلاط المرابطين ، وقد يؤيد هذا الرأي ما تمتع به الفقهاء من مركز مرموق في ظل دولة المرابطين ، التي كانت تحرص على استمالتهم وتوثيق أواصر العلاقات معهم ؛ كي تضمن مساندتهم لها، مما يدعم سلطة المرابطين ، وخصوصاً في البلاد الأندلسية ، وهذا كان له أثره في ازدياد ثراء الفقهاء الذين احتكروا معظم المناصب العليا في ذلك العصر خصوصاً خطط القضاء والفتيا والحسبة (77).

الخاتمة

من هذه العجالة رأينا دور علماء الأندلس في الحياة السياسية في القرن الخامس الهجري و التي يظهر من خلالها ما يأتي:

1- شهد القرن الخامس الهجري تعدد الولاءات السياسية ، من خلال ظهور الدويلات الطائفية العربية ، والبربرية ، والصقلية .
2- اتسمت العلاقة بين ملوك الطوائف بالعداء والصراع على الأرض ؛ مما أدى إلى إضعافهم واستنصارهم ببعض ملوك النصارى ؛ لإعانتهم على بعضهم البعض ، وفي الوقت نفسه عمل النصارى على ترسيخ الوحدة بينهم لتحقيق أهدافهم القومية والدينية .
3- برز دور العلماء وأهميتهم لحاجة ملوك الطوائف لهم، لتدعيم سلطانهم ونفوذهم، لما يتمتعون به من مكانة في نفوس الناس، الذين يرون فيهم حماة للوطن والدين بعد تقاعس الأمراء عن القيام بهذا الدور.
4- كان للفقهاء دور في النهضة العلمية والثقافية التي ازدهرت في دويلات الطوائف بعد قيامها
5- كان لبعض العلماء مواقف رافضة لسياسة ملوك الطوائف ؛ فوجهوا النقد اللاذع لهم ، محاولةً منهم لتصحيح مسار سياستهم بما يتناسب مع المصالح العليا للأمة .
6- كان للعلماء دور رئيس في حل الخلافات بين ملوك الطوائف وجمع كلمتهم ، وفي التحريض والدعوة إلى الوحدة بين المسلمين لمواجهة الخطر النصراني ، ونتج عن تلك الدعوة مثالٌ يُحتذى للتحدي والتصدي الإسلامي للمشروع النصراني الهادف إلى القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس .
7- ظهر الدور السياسي البنّاء للعلماء من خلال إقناعهم ملوك الطوائف بالوحدة ، والعمل معاً لمواجهة الأخطار النصرانية ، ثم طلب العون من المرابطين في المغرب على الرغم ما يمثله ذلك الطلب من مجازفة بمستقبلهم السياسي .

8- أدى استنصار ملوك الطوائف بالمرابطين ، والذي كان بتأثير العلماء ، إلى إحداث ثورة دينية في الجانبين المسيحي والإسلامي ، فكانت الحرب صليبية بالنسبة للمسيحين ، وجهاداً مقدساً بالنسبة للمسلمين .

9- كانت استجابة يوسف بن تاشفين لنجدة الأندلس نتيجةً للنداءات المتكررة من العلماء والوفود الأهلية المدعومة من العلماء أيضاً .

10- قام العلماء بواجبهم إزاء مجتمعهم سواء أكان بدعوتهم إلى الوحدة، أم عزل أمراء الطوائف ، فقد كانوا بمثابة الطبيب المُلقى على كاهله معالجة المرض قبل استفحاله ، وبذلك فإن العلماء لم يقفوا بمعزل عن المخاطر المحدقة بأوطانهم ، بل واجهوا ذلك وخاضوا العمل السياسي عندما اقتضى الأمر منهم ذلك ، والذي كان يهدف إلى تدبير أمر الناس العام بما يحقق المصلحة للجميع ، ويدرأ الخطر عنهم ، ويقيم الموازين العادلة ، فهذه السياسة مع الدين في خط واحد ، بل هي عقيدة وعبادة وخلق .

11- أثبت العلماء أنهم من يحمل الهمّ الوطني، والواجب الديني، وأنهم دائماً في المقدمة في الميادين كافة، وأنهم حصون الأمة وقادتها، وقدوة المسلمين ورموزهم؛ لأن العلم إيمان وعمل، وصدارة العلم لها مسئولياتها وتكاليفها.

12- من المساهمات المهمة للعلماء في الحياة السياسية إقناع يوسف بن تاشفين بالقضاء على ملوك الطوائف ، وتذليلهم الصعاب له ؛ للقضاء عليهم بالفتاوي العديدة ، التي تؤكد على جواز ذلك وعدم مخالفته للشريعة الإسلامية .

13- كانت مواقف كبار العلماء تتسم بالوطنية النابعة من الوعي والفهم الديني الذي يُملي عليهم تلك المواقف ، انطلاقاً من قوله تعالى { إنما يخشى الله من عباده العلماء } (الآية 28 من سورة فاطر) ، بينما الفئة الأخرى منهم والذين يمكن تسميتهم بالمتعيلمين أو المتسترين والمنتفعين بالعلم ، ساندوا ملوك الطوائف في مواقفهم المناقضة للمصلحة الوطنية والدينية ، والذين تصح تسميتهم بعلماء السلاطين .

14- إن دعوة العلماء للوحدة والجهاد تمثل استجابتهم لله ورسوله في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله تعالى: { ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون } (الآية 104 من سورة آل عمران).

15- وهذه الدعوة لا تخص العلماء فقط، بل واجب على الجميع، كل حسب موضعه وتبعاً لعلمه وفقهه.

الهوامش

1- ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، تحقيق بروفنسال ، بيروت، دار المكشوف ، 1956م،ص144

2- عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي وهو العصر الثاني من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، 1969م ، ص14 .

3- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص144.

4- ابن بسام، الذخيرة، تحقيق إحسان عباس، القسم الأول، المجلد الثاني، ص578.

5- ينظر: ابن حزم ، رسائل ابن حزم الأندلس ، رسالة التلخيص لوجود التخليص ، تحقيق إحسان عباس ، القاهرة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1987م ، جـ3 ، ص173 وما بعدها .

6- ابن عذاري ، البيان ، جـ3 ، ص277_282 .

7- ابن بلقين ، مذكرات ، ص69 ــ 76 .

8- القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم ، طبعة القاهرة ، 1350هـ، ص35 .

9- كتاب التبيان ، نشره ليفي بروفنسال ، طبعة القاهرة ، 1955، ،ص18 .

10-ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، ص77 .

11-ابن الخطيب ، أعمال الإعلام ، ص244 .

12- القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم ، طبعة القاهرة ، 1350هـ ، ص35 .

13-مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان ، ص18 .

14-صوّر هذه الحالة أبو علي الحسن بن رشيق بقوله :

مما يزهدني في أرض الأندلس سَماعُ مقتدرٍ فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاضاً صولة الأسد

ينظر: المراكشي ، المعجب ، ص123، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص144.

15- تاريخ الأندلس ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، ص82 .

16- المسلمون في الأندلس ، جـ3 ، ص125.ويشير ابن حزم إلى ذلك بقوله " ... إن كل مدِّبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد ، للذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارّهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون

على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين مسلطون لليهود على قـوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهـل الإسـلام ... " ، رسـائل ابـن حـزم الأندلسي، جـ3 ، ص173 .

17-من أجل تحقيق هذه الغاية نفذوا خطة الفونسو السادس الذي قال :" ولكن الرأي كـل الـرأي تهديد بعضهم ببعض ، وأخذ أموالهم أبداً حتى ترق وتضعف ، ثم هي تلقي بيدها إذا ضعفت وتأتي عفواً كالذي جرى بطليطلة ، إنما كان من فقر أهلها وتشتتهم ، مع اندبار سـلطانها ، وصارت إليّ بلا مشقة " ، ابن بلقين ، التبيان ، ص73 .

18- Dozy :Nistoire des Musulmaus Jusqua laConguete de L Andolousie parles Almoravides , leyde 1932 , T3

19- Fossier: Enfance d turope : Aspects economiques et Lociaut Paris 1982 , P.254

20- ابن بلقين ، التبيان ، ص76 .

21-. CALMETTE : Histored dEspagne . paris 1947 , p.80

22-. Dozy : cit . p.121

23-رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق إحسان عباس ، جـ3 ، ص173 ، ابن عذاري ، البيان ، جـ3 ، ص254 ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق3 ، م1 ، ص180

24-المستكفي بالله : هو محمد بن عبد الرحمن ، تولى الأندلس وله ثمان وأربعون سنة ، وولـد سنة ست وستين وثلاثمائة ، يكنى أبا عبد الرحمن ، تلقب بالمستكفي وولي ستة عشر شهراً، لمزيد من التفاصيل ينظر : الحميري ، جذوة المقتـبس ، جـ1 ، ص58، ابـن بـسام ، الذخيرة، ق1، م1، ص433 .

25-ابن بسام، الذخيرة ، ق1 ، م1 ، ص435ـ436 .

26-أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني ، من أهل اشبيلية ، رحل إلى المشرق سنة 444هـ ، قتله المعتضد بالله عباد ظلماً بقصره ، ودفن سنة 460هـ ، ينظر : ابن بـشكوال ، كتـاب الصلة ، القسم الثاني ، ص402 ، ابن بسام ، الـذخيرة ، القـسم الثـاني ، المجلـد الأول ، ص81، ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، جـ1 ، ص171 ، المقري ، نفح ، جـ3 ،ص371 .

27-ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، القسم الثاني ، ص403 .

28- الفتنة البربرية : بعد انتهاء الدولة العامرية ثارت في قرطبة وما حولها الفتن بين الأندلسيين والبربر ، ويذكر ابن عذاري أن ابن عبد الجبار وواضح لما نزلا قرطبة قتلا كـل مـشتبه

بالبربر وكل عدوي ، وقد هزم ابن عبد الجبار وواضح أمام البربر في وادي آرة سنة 400هـ ، وفي سنة 401هـ نزل البربر بقرطبة ووصلوا الزهراء وعاثوا فيها قتلاً وخراباً، وهذه الأحداث عرفت باسم الفتنة البربرية ، لمزيد من التفاصيل ينظر : ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ3 ، ص97 ،101، 102 ، 103 ، 106 ، 107.

29-سعيد بن منذر بن سعيد ، وهو ولد قاضي الجماعة منذر بن سعيد ، من أهل قرطبة ، كان خطيباً بليغاً ذكياً ، قُتل يوم تغلب البربر على قرطبة سنة 403هـ ،كتاب الصلة ،ص212 ، ترجمة رقم 475.

30-عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي الحافظ يُعرف : بابن الفرضي ، من أهل قرطبة ، وهو صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس قتل يوم قرطبة سنة 403هـ ، لمزيد من التفاصيل ينظر : كتاب الصلة ، ص251ـ255، ترجمة رقم (572).

31-محمد بن سعيد بن السرى الأموي الحرار ، من أهل قرطبة يكنى أبا عبد الله ، قتله البربر يوم دخولهم قرطبة ، وقد كان استقبلهم شاهراً سيفه يناديهم : إليّ إليّ يا حطب النار ، طوبى لي إن كنت من قتلاكم حتى قتلوه سنة 403هـ ، كتاب الصلة ، ص489ـــ490،ترجمة رقم(1059)

32-أبو سلمة الزاهدي : كان زاهداً متقشفاً ، وكان ممن فتن بمحمد المهدي وناصره ووقع في أيدي البربر بعد دخولهم قرطبة ، وذبحوه في منزله سنة403هـ ، كتاب الصلة ، ص232 ، ترجمة رقم (531) .

33-عبد الله بن سعيد بن خيرون بن محارب يعرف بابن المحتشم ، توفي بالمطبق منكوباً في ربيع الأخر سنة403هـ وأُسلم إلى أهله في قيوده ودفن بمقبرة ابن عباس ، كتاب الصلة ، ص258ـ259،ترجمة رقم (574) .

34-من الذين فروا من قرطبة الفقيه خلف بن مروان بن أمية المعروف بالصخري ، والفقيه أبو عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار ، وكان أحد المتشددين في صلح البربر ، فأهدروا دمه ، ينظر : كتاب الصلة ، ص162 ، ترجمة رقم (362) ، عياض ، ترتيب المدارك ، م2 ، ص295 .

35-مثل الفقيه محمد بن معافى بن صمئيل الذي نزل بقرطبة سنة 402هـ/1012م ، ثم انتقل إلى سرقسطة ، والفقيه عريب بن مطرف بن عريب الذي نزل في كورة ريه ، ينظر ترجمتهم على التوالي كتاب الصلة ، ص503 ، ترجمة رقم 1095 ، ص450 ، ترجمة رقم (965) .

36-ذو الوزارتين الكاتب أبو محمد ابن عبد البَرِّ ، من أهل الأدب والبلاغة ، والتقدم في العلم ، كتب للمتعضد بن عباد بإشبيلية ، لمزيد من التفاصيل ينظر : ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص538 ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق3 ، م1 ، ص125 ، ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، جـ2 ، ص325 ، الضبي ، بغية الملتمس ، ص307 ، ابن الأبار ، إعتاب الكتاب ، ص217 .

37-ابن بسام، الذخيرة ، ق3 ،م1 ، ص178،173 .

38-ينظر ترجمته في التكملة ، جـ1 ، ص315 ، ترجمة رقم (1111) .

39-المصدر نفسه ،جـ1 ،ص315 .

40-انظر ترجمته في : القلائد ، ص599 ، ترتيب المدارك ، جـ2 ،ص347 ، الذخيرة ،ق2 ، م1 ،ص94 ، والمغرب ، ج1 ، ص327 ، النباهي ، المرقبة العليا ، ص95 ، والبغية ، ص261 ، نفح الطيب ، جـ2 ، ص283 .

41-الذخيرة ، ق2 ، م1 ، ص95 .

42-المصدر نفسه ، ص95ـ96 .

43-نفح الطيب ، جـ2 ، ص292 .

44-المصدر نفسه ،جـ2 ، ص287.

45-ترتيب المدارك ، جـ2 ،ص349 .

46-الحلة السيراء ، جـ2 ، ص98 .

47-ترتيب المدارك ، جـ2 ،ص351 .

48-رسائل ابن حزم الأندلسي ، جـ3 ، ص173

49-المصدر نفسه ، جـ3 ، ص176 .

50-المصدر نفسه ، جـ 3 ، ص174 .

51-الذخيرة ، ق3 ، م1 ، ص180ـ181 .

52-البيان المغرب ، جـ3 ، ص254ـ255 ، نفح الطيب ، جـ6 ، ص208 ، الحجي ، ص365 .

53-أعمال الأعلام ، ص231 .

54-مجهول ، الحلل الموشية ، ص33 .

55-ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، جـ1 ، ص334 .

56-مجهول، الحلل الموشية ، ص33 ـ35.

57-روض القرطاس ، ص142 .
58-المصدر نفسه ، 143 .
59-الروض المعطار ، ص289 ،وانظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص243 .
60-ابن بسام ، الذخيرة ،ق2 ، م2 ،ص653 .
61-الحلة السيراء، جـ2 ، ص98ـ99 ، وانظر ابن الأثير :الكامل ، جـ8 ، ص141 ، الحميري، الروض ،ص288 ، ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص144 ، المقري ، نفح، جـ6 ، ص128ـ130 ، ابن عذاري: البيان ، جـ4 ، ص132 .
62-التبيان ، ص103 ، وانظر :ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص89 ـ90 .
63-الحلل الموشية ، ص45ـ46 ، وانظر في الحلل الموشية أيضاً رسالة أخرى من المعتمد إلى يوسف بن تاشفين من إنشاء كاتبه الوزير أبي هاشم بن الجد ، ص46ـ48.
64-روض القرطاس ، ص144 .
65-ابن عبد الملك، الذيل والتكملة على كتابي الموصول والصلة ، السفر الأول ، القسم الثاني ، ص425 .
66-الصلة ، ترجمة رقم 997.
67-ابن بسام ، الذخيرة ، ق2 ، م1 ، ص241 .
68-ابن عذاري ، البيان ، جـ4 ، ص132 .
69-المصدر نفسه ، ص132 ، وانظر أيضاً : الحلل الموشية ، ص44ـ45 .
70-ابن بلقين : التبيان ، ص146 .
71-المصدر نفسه ، ص118 ، وانظر : ابراهيم خليل السامرائي ، علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدولة الإسلامية ، ص157 .
72-ابن بلقين ، التبيان ، ص128.
73-أعمال الأعلام ، ص247 .
74-ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص106ـ107 .
75-ابن خلدون ، كتاب العبر ، جـ6 ، ص249 ، عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الثالث ، القسم الأول، ص42 ، محمود مكي ، تاريخ الأندلس السياسي ، ص613، بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص18 . أبو بكر الطرطوشي : هو أبو بكر بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي ، صاحب كتاب سراج الملوك ، ويعرف بابن

رندقة ، توفي بالاسكندرية سنة 520هـ/1126م ، ينظر : المغـرب ، جـــ2 ، ص342 ، بغية الملتمس ، ص117، المقري ، نفح، جـ2 ، ص300 .

76-دندش ، دور المرابطين في نشر الإســلام فــي غــرب إفريقيــا ، ص200 ومــا بعــدها .

أبوحامد الغزالي : هو محمد بن محمد بن محمد ، ولد سنة 450هـ/1058م ، وتفقه علــى إمام الحرمين ، ودرس بالنظامية في بغداد سنة 484هـ/1091 ، رحل إلى الشام فأقام بهــا بدمشق وبيت المقدس مدة ، وصنف في هذه المدة كتابه " احياء علوم الدين " ثم عاد إلى بلدة طوس فأقــام بهــا وتــوفي ســنة 505هـــ/1111م ، ابــن الأثيــر ، الكامــل ،جـــ8 ،ص294ــ295،عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابــن خلــدون ، ص485 ومــا بعدها.

77-سعيد عاشور ، الحياة الاجتماعية في المدينة الإســلامية ، ص93ـــ94، كمــال الــسيد أبــو مصطفى، صورة من المجتمع الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين ، ص15ــ16.

قائمة المصادر والمراجع

1- ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ،ت658هـ
ـ إعتاب الكتاب ، حققه وعلق عليه الدكتور صالح الأشتر ، بيروت ، دار الأوزاعي ، 1986م
ـ التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق عبد السلام الهراس ، الدار البيضاء ، دار المعرفة .
2- ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني(ت سنة630هـ/1232م) .
ـ الكامل في التاريخ ، بيروت ، طبعة دار الفكر ، 1978م .
3- بالنثيا (أنخل جنثالث)
ـ تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله إلى الاسبانية حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية، ط1 ، 1955م .
4- ابن بسام : أبو الحسن علي ت542هـ)
ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس، بيروت ، دار الثقافة ،1997م .
5- ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (494ـ578هـ)
ـ كتاب الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة (1966م).
6- ابن بلقين ، الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (469ـ483هـ)
ـ مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان ، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، دار المعارف ، 1955م
7- ابن حزم الأندلسي 384ـ456هـ
ـ رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق إحسان عباس ، ط2 ، بيروت ، المؤسسة العربي للدراسات والنشر ،1987م
8- الحميري : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم
ـ الروض المعطار في خبر الأقطار ، معجم جغرافي ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، مكتبة لبنان ، ط2 ، 1984م
9- ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الاشبيلي ت سنة 529هـ
ـ قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، حققه وعلق عليه الدكتور حسين يوسف خريوش
10- ابن الخطيب : الوزير لسان الدين محمد بن عبد الله (ت 776هـ /1354م)
ـ تاريخ اسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق أ. ليفي بروفنسال ، بيروت ، دار المكشوف ، ط2 ، 1956م.

11- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (732 ــ 808هـ) ،
ــ تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، تحقيق خليل شحادة ، بيروت ، دار الفكر ، 1981م .
12- دندش ، عصمت عبد اللطيف
ــ دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ، طبعة بيروت 1988م.
13-دوزي (رينهرت)
ــ المسلمون في الأندلس ، ترجمة د. حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998م، 3 أجزاء .
14- ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله (ت626هـ/1325م)
ــ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، 1972م.
15- السامرائي : ابراهيم خليل
ــ علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية ، طبعة بغداد ، 1985م
16- ابن سعيد : علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ت685هـ
ــ المغرب في حلى المغرب ، وضع حواشيه خليل المنصور ، بيروت ، دار الكتب العلمية 1997م .
17- الضبي : أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة ت سنة 599هـ
ــ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي ، بيروت، دار الكتب العلمية ،1997م .
18- عاشور، سعيد:
ــ الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية ، مجلة عالم الفكر ، م1 ، الكويت ، 1980م .
19- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف النمري القرطبي ت سنة 463هـ
ــ القصد والأمم في التعريف بأنساب العرب والعجم ، نشره حسام الدين القدسي ، طبعة القاهرة ، 1350هـ .
20- ابن عبد الملك : أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي المراكشي (ت سنة 703هـ)
ــ الذيل والتكملة على كتابي الموصول والصلة ، السفر1 ق2، تحقيق محمد بن شريفة ،طبعة بيروت ، (د.ت) ،وكذلك السفر 8 ق2 للمحقق نفسه ، طبعة الرباط 1984م .

21- ابن عذاري : أبو العباس أحمد بن محمد (كان حياً عام 7121هـ/1312م)
ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب .
ـ الأجزاء الثلاثة الأولى، تحقيق ومراجعة ج.س.كولان وإ. ليفي بروفنسال ، بيروت ، دار الثقافة ، ط2 ،1980م
ـ الجزء الرابع ، تحقيق ومراجعة د. إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ط2 ، 1980م .
22- عنان (محمد عبد الله)
ـ دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الثالث ، القسم الأول ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ط2 ، 1990م .
23- عياض (القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي ت544هـ
ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1998م .
24- فروخ (عمر)
ـ تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1179م .
25- ابن الكردبوس
ـ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، نصان جديدان ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، مدريد ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، م13 ،65ـ1966م.
26- مجهول:
ـ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ، دار الرشاد الحديثة ، ط1 ،1979م
27- المراكشي : محيي الدين محمد عبد الواحد بن علي التميمي (ت647هـ/1249)
ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، 1963م.
28- أبو مصطفى ، كمال السيد
ـ صورة من المجتمع الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين من خلال نوازل ابن رشد القرطبي، المجلة التاريخية المصرية ، م37 ، تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ، 1990م .
29- المقري : أحمد بن محمد ت 1041هـ

ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له د. مريم قاسم طويل د. يوسف علي طويل ، بيروت ، دار الكتب العلمية ،1995م.

30- مكي (محمود علي)

ــ تاريخ الأندلس السياسي ، دراسة شاملة من كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي ، بيروت ، مركــز دراســات الوحــدة العربيــة ، ط1 ، 1998م.

المراجع الأجنبية

1- Cal METTE (Joseph): Histoire d Espagne , Ed , Paris ,1947.

2- Dozy (Erneint):Histoire de Musulmans d Espagne Jusqua la conquete Landalousie Par ies Almoravides , T3. Lyde 1932.

3- Fossier (Robert):Enfance de L Europe : Aspects economiques et lociaux . T.1: L homme etton espace , Ed , Paris 1982 . P.U.F